موشحات سليمان

أولى الأناشيد السريانية

للاب الدكتور افرام الدومنيكي

قراء ة وعرض
شاكر سيفو

في تقديمه للكتاب يقول الأب يوحنا الخوند: (أنها رؤية بعيدة في خضم أبحاث علمية متلاطمة يخوض المؤلف سابحاً بمهارة وارتياح) وسرعان ما يعود الى الشاطيء الهاديء ليريك قبضة من لآليء نادرة اقتنصها من قصر ذلك الخضم.انها حدس رهيف يقود فكره وقلمه في رحاب نص خارج من الزمان، هارب من المكان، متفلتّ من الاشخاص، ضارب في ذات الله اللامتناهي، وفي عمق الحقيقة المتجسدة، في علم الروح اللامحسوس انه بالاحرى اختبار قربى عميقة، يحس بها المؤلف في روحه تنشدها روحه تنشدها روح كاتب الموشحات شداً اسيراً فيتعارف الروحان على مسافة ثمانية عشر قرناً، وكلاهما موطنان عراقيان (مابين النهرين)، ويتعانق طويلان ويغيبان في نشوى العناق وتعود الى الروحين ذكريات مدرسة الرها في شعر مار افرام السرياني، فيتضح ان كاتب الموشحات هو احد ائمة الشعراء السريان الرهاويين الأوائل انه بحث تاريخي دقيق، يكشف خبايا السحيق، ويبلغ بنا فجر الجماعات المسيحية الاولى، انه صلاة انشاد وتسبيح واتحاد الروح بالله، وانخطاف العقل فيسر كلمة الله الخالقة، من خلال التأمل في نظام هذا الخلق الرائع السيار "ولا يعرف البطالة ولا الوقوف" تعاقب الليل والنهار يحدِّث ببهاء الله (الموشحة ١٦/ ١٧).. اما المؤلف فيتقدم بتفصيل عن كتابه حيث يقول (هذا الكتاب هو ثمرة جهد، طويل يعود الى سنة ١٩٧٩ عندما باشرت بدراسة مقتضبة في باريس، حول اناشيد سريانية، نجهل كاتبها، وقد عالجت منها موضوع نزول المسيح الى الجحيم، وفي عام ١٩٨٩ عدت الى عملي من جديد، اتابع دراسة النص وها انا اقدم

هذه الموشحات للنشر بالعربية، بعد نشرها بالفرنسية في باريس..) ويتحدث المؤلف عن صعوبة قراءة المخطوطات السريانية التي عثر عليها لدراسة نصوص هذا الكتاب: فيقول: (اما المخطوطات السريانية، التي حملت الينا هذا الكنز فهي رديئة الخط وصعبة القراءة لعدم وجود الحركات اللغوية في النص، مما سبب التباساً في الكشف عن كل محتواها، فلأدراك الصور الشعرية التي يلجأ اليها الشاعر في ابلاغ معانية كان يقتضي الاستعانة بلغتي الام السريانية المحكية والتي نطلق عليها في العراق (السورث)، لأتمكن من فهم المعاني وألِمَّ بالمقصود، وكانت هذه الاستعانة بلغتي المحكية قد اضفت على ترجمتي، غنى واقتراباً من فكر الشاعر.. انني آمل ان تهب هذه الروح الصوفية التي كانت لدى كاتب الموشحات في كل عاشق للشعر السرياني فيطمح لربط الحاضر بالماضي الدفين الذي تمتد جذوره السريانية في خبايا حياتنا المسيحية المشرقية..) ان المؤلف الأب الدكتور افرام الدومنيكي قد سحره النص وأعجبَ بهِ وهبَّ بروحه العلمية المعروفة الى ترجمته ودراسته دراسة تفصيلية وقد حافظ على هوية الكاتب من خلال تقصيه للموضوع بدقة ووجد ان الكاتب تلميذ في مدرسة يوحنا الانجيلي شاعر هائم بحب الكلمة وتنشده الخبرة الصوفية والمعرفة الروحية الى الحياة والله، هذه الخبرة التي تتجذر في عمق هذا الارث اليوحناوي وترتوي من ذات الينبوع، ولقد عبّر الشاعر عن حقيقة ما اختبره بهذه الكلمات "كلما تنساب الريح في القيثارة وتنطق الأوتار، كذلك ينطق الرب في اعضائي/ وبحبه اتحدث "(الموشحة٦: ١-٢) ولذا فان اكتشاف روحية مشتركة ما بين الموشحات وكتابات يوحنا هو الذي اثار اهتمام المؤلف، حيث يجد ان النص السرياني للموشحات لم يتم اكتشافه الى سنة ١٩٠٧ وتتوالى تواريخ عديدة في الشرح والتدوين والاكتشاف واختلاف التسميات لدى الباحثين ويثير المؤلف الأب افرام انتباه القاريء الى امرين اساسيين في هذا الاكتشاف:

الاول: هو عدم تصنيف الموشحات كمؤلف غنوصي، بسبب تواجد جزء منها في كتاب اعتبره الباحثون غنوصياً اما الامر الثاني فهو ضرورة تصحيح الخطأ الذ نجم عن مؤلف **Pistissophia** الذي ذكر اسم سليمان وهو يسرد آية من الموشحة التاسعة عشرة، فاشارة الى سليمان في هذا الكتاب ومن خلال الاستشهاد بآية واحدة لا يوجب نسب الكل اليه، في حالة عدم وجود توقيع الكاتب على مؤلفة، وما يدعم صحة رأي المؤلف هنا هو ان الناشر الاول لنص الموشحات اطلق عليه عنواناً ينطبق على محتوى الكتاب حسب قول المؤلف "زميروثو وتشبحوثو دشليمون" أي "أناشيد" "موشحات" "وتسابيح سليمان" ومن دون ان يرد ذكر سليمان في المؤلف.. وينكب الباحث والمؤلف على دراسة مجموعة من المخطوطات التي تؤدي به الى هذه التفاصيل البحثية فيورد عدداً كبيراً من الادلة والبراهين والامكنة والتواريخ في متن الكتاب، مع مصادرها والاسماء التي عاشت بين طياتها وبخاصة الاسماء الادبية والتاريخية لمؤلفين وبحاثة اجانب.. وفي مفصل آخر من الكتاب وتحت عنوان (اصل الموشحات)، يشرح المؤلف بدقة

وموضوعية حيث يقول: (النص السرياني غير واضح في نهاية الموشحة الثامنة عشرة ، ولكن من حسن الحظ جاء النص اليوناني مكملاً لهذا النقص،) ويورد المؤلف عددا من النواقص والحذوف في المخطوطات السريانية، ويعدد اصول بيئة النص، فيقدم لنا اربعة ادلة او اصول هي:

١. الاصل اليهودي، واعتمدوا في ذلك على الصور والافكار المشتركة القائمة ما بين الموشحات وكتب العهد القديم لا سيما المزامير والكتب الحكمية.
٢. الاصل المسيحي : وهناك موضوعات مثل ولادة المسيح من عذراء، ونزوله الى الجحيم، واشارات غامضة الى الثالوث، ويستندون الى مواضيع ورموز، كالماء الحي، او ماء الحياة والحبيب والحب، والشركة والنور، ويقابلونها مع تعابير يوحنا فيجدون فيها مصدراً مشتركاً، ضمن مناخ فكري وروحي لكلا الكاتبين.
٣. الاصل الغنوصي: اعتمد بعض المفسرين على تعابير مثل "المعرفة" و"الراحة " و "الحق" والكلمة" و"الملء" و "فوق/اسفل" واعتبروها كافية لينسبوا الموشحات الى اصل غنوصي.
٤. كتاب قمران: ان الطابع الاسنادي للموشحات بالاضافة الى وجود موضوع الطريقين طريق الله المعبّر عنه بالشمس وطريق مختاري الفردوس، جعل عدداً من الباحثين يعتقدون ان تكون البيئة الفكرية والروحية في قمران، نشأة محتملة للموشحات.. وقد ذهب بعض الباحثين الى تقديم افتراضات اخرى منها ان للموشحة صلة ببرديصان، وكتابات مار افرام السرياني..

يعتبر **HARRIS** هاريس الموشحات نتاجاً مسيحياً نشأ في مطلع المسيحية عاصر الرسل، هذا ما يقوله المؤلف، ولقد بقيت هذه الموشحات شديدة التأثر باليهودية وأكثر من ذلك، فقد أطلق على الموشحات اسم مُرتل من المسيحيين الأولين"

وفي فصل آخر من متن الكتاب يورد الكاتب والمؤلف الأب الدكتور افرام: تاريخ كتابة الموشحات: يقول: إن الطابع الشعري للموشحات وغياب الإشارات التاريخية الدقيقة عنها، تجعل من مشكلة تحديد تاريخها مسألة شبه مستحيلة، فالاعتقادات والتخمينات التاريخية التي يوردها عن مجموعة بحاثة أجانب ترجع تاريخ تأليفها الى ما بين سنة (٩٠-١٥٠م) او حوالي ١٢٠م يعني ما بين (١٠٠-١٥٠)، ومن جهة أخرى يشير " **DANIELOU** " إلى أن أنشاء الموشحات في سوريا وتقاربها من رسائل اغناطيوس، وأناشيد ما افرام السرياني يؤكد بان الموشحات كانت جزءاً لا يتجزأ من تراث الكنيسة السريانية وأنها تعود إلى ما قبل القرن الرابع، اما المؤلف فيستدرك تاريخ كتابة الموشحات، ويقول بان أصولها قديمة لكونها تنهل من المصادر ذاتها والتي تركت اثاراً في كتابات يوحنا ومن بعده تلاميذه ويدعم آراءه في موجز لطروحات هي: يقول المؤلف: لقد اجتازت الجماعة اليوحناوية مرحلة حرجة، وان كيان الجماعة الواحدة تصدع، وتزعزعت اسسها وما حصل، كان

انقساماً لا بالمعنى العقائدي الذي نطلقه، بل كان الخلاف يدور حول تفسيرها لـ "كلمة"، "ملثو" ونقرأ صدى هذا التفسيسر في الرسالة الأولى ليوحنا.. ويورد الكاتب والمؤلف بعض فرضيات هذا الانقسام.

١. الموشحات، وان كتبت بلغة شعرية وان كانت أناشيد ليثوروجية فهي تعبّر عن لاهوت بدائي، ومن دون تعقيد، تكونت هذه الموشحات في جماعة تنتمي إلى مدرسة يوحنا، قبل حدوث الانقسام او تكون قد ساهمت في التعجيل بحدوثه..
٢. الموشحات ثمرة تتابع فكري، تبلور من الجماعة المنشقة، أي بعد حدوث الانقسام في صفوف الجماعات اليوحناوية.
٣. الموشحات، نتائج فكري خاص، تبني أسلوباً شعرياً وأخذت مكانها ما بين هاتين المرحلتين.

ويسترض المؤلف براهين أخرى على قدم هذه الموشحات حيث يقول: هناك براهين تدعم نظرية قدم الموشحات فالأمر يتعلق بالمرحلة التي كانوا يتكلمون فيها عن الروح القدس "روحو" بتعبير سامي، كما يعبّرون عنه كشخص مؤنث، فكلمة "روح" في اللغات السامية، مذكر ومؤنث، وتدل على الروح والريح معاً، ولكن اللاهوت المسيحي يستعملها في المذكر عندما يتحدث عن الروح القدس، والبرهان الآخر عن قدم الموشحات يرتكز على موضوع العماد الذي لا يتحدث الشاعر عنه إلا بعبارة "الختان" وهذه ما تشير إليه الموشحة الحادية عشرة : ختن قلبي فبدأ خصبه، ونمت فيه النعمة وأعطى ثماراً للرب، ختنني العلي بروحه القدوس، وكشف له باطني، وملأني بحبه، صار لي ختانه خلاصاً، وسلكت بسلامة في الطريق، طريق حقه (الموشحة ١١: ١_٣).

وأخيراً فان البرهان الأكثر أهمية والذي يدعم هذه النظرية هو غياب اسم يسوع عن الموشحات أما تفسير هذا الغياب، فهو أن الشاعر يحرص على الإنشاد لـ (كلمة) الحاضر في جماعته المختلفة، دون التوقف عند يسوع ما قبل القيامة، هذا المفهوم ذو طابع قديم، يتميز بكونه يستهدف تمجيد المسيح الحي في الجماعة ويفسّر فاعليته من خلالها، ولكن من دون عنوان جديد هو (لغة الموشحات)، ويقول تعتبر الموشحات واحدة من أجمل الكتابات القديمة قي العهد اليهودي _ المسيحي يكشف الشاعر فيها عن عبقريته الأدبية والشعرية، فهو شاعر ينهل عن نبع التقليد الكتابي ومتأثر بشكل بلغة المزامير وروحانيتها، ولما كان النص السرياني للموشحات قد حثّ إلى العديد من الأبحاث، فالمعطيات اللغوية والصور الشعرية لم تحظ بدراسة جدية ، ان الذي يدّعون الأصل السرياني للموشحات عديدون، رغم ادعاء الآخر بكتابتها باللغة اليونانية، كان زعمهم مقارنة موشحات سليمان بالنص اليوناني لمزامير سليمان، أمّا البراهين السريانية فهي، تلك الصلة الوثيقة القائمة بين البيئة الأصلية للموشحات والتي حددت فيها "ألرها" وما بين اللغة ذاتها، هذا ما ذهب إليه عدد كبير من الباحثين الأجانب الذين رؤوا بان الموشحات كتبت باللغة

السريانية، وإنها أولى الأناشيد التي كتبت في هذه اللغة.

خلاصة القول، أن جهد المؤلف بدا واضحاً وكبيراً في جمع هذه المعلومات الدقيقة والمفصلة حين يصل إلى أن الموشحات سريانية الأصل وهي لمؤلف واحد وبقلم كاتب واحد، نشأت في بيئة سريانية بين (٩٠_١٥٠) لكي ترتل كمزامير، وفي معرض التفصيل يورد الكاتب مقارنة بين الموشحات وكتابات يوحنا الإنجيلي، ويتوصل إلى إظهار ثلاثة تيارات مختلفة، كما أوردناها سابقاً في متن هذا العرض، أما الفصيل الآخر فقد كان فيه جهد المؤلف كبيراً ورائعاً حين أقدم على ترجمة الموشحات من السريانية إلى العربية، ترجمة بدقة دقيقة رائعة في لفظها الشعري والإنشادي وبلغ عدد الموشحات المترجمة (٤٢) موشحة، وهناك ملحقاً بالنص السرياني لها، هكذا يعود بنا الأب الدكتور افرام الدومانيكي إلى مدرسة الرها، وذكريات دراستها في أشعار مار أفرام السرياني، حيث يتضح جلياً أ، كاتب هذه الموشحات هو احد أئمة الشعراء السريان ألرهاويين الأوائل.. انه كتاب فريد في تاريخ الأدب السرياني وجدير بالقراءة والمناقشة.